فن البارودى بين التقليد والتجديد

مقدمة :

ترددت فى نواحى مجتمعنا العربى صرخات مغرضة ، وصيحات عاتية تحتضر أدبائنا وتنتقص لغتنا وتغض من شأنها وتزعم أن تراثنا من الفن ناقص يعوزه الكمال أو جامد يحتاج إلى بارع الفكر ورائع الخيال . بل لقد رأينا مناظرات تعقـــد ومناقشات تدور يراد منها أن تلقى فى روع الناس أن الأدب العربى لا يكون أدبيا ولا يخلق شاعرا جزل القول رصين البيان فأحببت أن أنبه إلى ضلال هؤلاء وإلى خطر ما يندفعون فيه من باطل المزعم فضربت لهم المثل الحى بالبارودى ونبوغه فى شعره وزعامته فى فنه وتأثيره القوى فيمن جاء بعده ليدرك الذين التبست عليهم الحقائق بالاوهام واشتبهت عليهم الواقع بالاحلام . ليدركوا أن الادب العربى فياض بأسمى ما تجود به القرائح وأروع ما يطمع إليه الخيال من بديع الصور وجمال التصور .

وإذا كانت قد مرت به فترات ضعف ولحظات جمود وعصفت بجماله فتخلف عن آداء رسالته . فذلك لأن أبناءه قد أزوروا عنه وانصرفوا عن استجلاء محاسنه وتذوق بدائعه .

لقد نهل البارودى من معين الأدب العـــربى وارتضع من أفاويقه ما وافق ذوقه . فآلت إليه زعامة الشعر العربى فى العصر الحديث .

تمهيد

قبل الحديث عن البارودى يحلو لى أن أنبه الأذهان إلى المرحلة التى تداعى فيها البناء العربى بضعف الأمه العربية وخضوعها للإعاجم الذين لا يقدرون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسان أهله ولاهم لهم إلا ابتزاز الأموال من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى فتفشى الجهل وساد الظلم واستعجم الشعراء ولحنوا لحنا فاشيا ، وكانوا أبعد الناس عن الاساليب القوية ، والمعانى الواضحة ، والشعور السليم ، وخانتهم الاداة المعبرة ، وأصبح همهم النظم الذى لا روح فيه ولا معنى له ، والذى يساق فى عبارة ركيكة عثه وفى حشد زاخر من المحسنات لستر عواره(١) .

وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه عيا ومرضا على يد السيد على الدرويش (١٢١١هـ — ١٢٧٠هـ) المولود بالقاهرة وقد نشأ بها وأغرم بالادب ، وحفظ كثيرا من الشعر وأصاب شهرة كبيرة فى زمانه ، وتقطف أبياتا له من قصيدة يمدح بها نقيب الاشراف السيد البكرى :

يا أيها المولى الذى شهد العلا يرقى بقدرك
والبدر فى أوج السما لا يرتقى أبدا لجدك
دم فى سرور يزدهى وبه تنال شريف قصدك

وأما السيد محمود صفوت الساعاتى فانى حين أسوق الحديث عنه أجد له قصيدة شذت عن مستوى شعره ، وجاءت عين قصائده ، ومن حر

---

(١) أفدت من البحث القيم الذى كتبته استاذنا صادق خطاب عن البارودى خط بمكتبة كلية اللغة العربيه بالقاهرة .

كلامه تسمعها فتخال روح البارودى فى الفخر ، أو تخال أسلوب البارودى وهى قصيدة يمدح بها أمير مكة تقطف لك أبياتا منها .

انحط قدر الحادثات وهمتى من دونها المريخ والجوزاء
هيهات نهضم جانبى وعزائمى مثل البواتر دأبها الامضاء
صيرا على كيد الزمان فانما يبدو الصباح وتنجلى الظلمات
أنا والمعالى عاشقان وطالما وعد الحبيب نخانه الرقباء

وقفة قصيرة بين المرحلتين بين الماضى والمستقبل لنلقى اشراقة مطمئنة على الاولى وتنهيأ لاستقبال الاخرى فقد يعز علينا ألا نجد شيئا فيما مضى نكون به مصر شاعرة؛ لقد تلمسنا الشعر قبيل العصر ، فلم نجد شيئا فيما مضى تكون به مصر شاعرة وتلمسناه فى صدر العصر فلم نجد إلا صورة منعكسة لاتحمل شعورا ولاتنطوى على حسن .

لنودع إذن تلك المرحلة إلى حيث لارجعة لها وإلى حيث لا نأسف عليها ، ولنودع معها ثلاث ظواهر لازمة لها . التقليد النازل ، والصنعة الكزة ، والبديع الممول ، ثم لتستقبل معها التقليد الصالح والصنعة العربية الحرة والإبداع لا البديع .

نتحدث عنها فى هبة غالبة منحها امام الشعر الحديث واستعاد بها نفوذه القديم واسترد بها تاجه الذى كان قد نزع عنه فى عصور الانحلال .

لم تكن هذه الهبة من يد اسماعيل ولكنها جاءت على عصره ولم تكن أثر النهضة ولكنها كانت عاملا حيا على رفعتها واحيائها وتدعيم بنائها . نحدثك عن هذه الهبة فى شخص العبقرى الفذ زعيم النهضة الشعرية محمود سامى البارودى .

سيرته : —

نشأ البارودى فى بيت مجد مؤثل ، وهو ابن حسن بك حسنى من أمراء المدفعية ودنقلة فى عهد محمد على ، وجده لابيه عبد الله الجركسى . والبارودى نسبه إلى ايتاى البارود بمديرية البحيرة وكان أحد أجداده ملتزما لها وينتهى نسبه إلى الملك الاشرف سيرباى الاتابكى من المماليك الذين حكموا مصر فيما مضى .

ولد البارودى بسراى باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٢٥٥ وفى عام ١٢٦٢ هـ توفى والده بناحية دنقلة وكان عمره وقتذاك سبع سنين وهذا الحادث الاليم كان له وقعه فى نفس الشاعر وظهر أثره فى سن العشرين حيث يقول :

لا فارس اليوم يحمى الصرح بالوادى
طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مضى وخلفنى فى سن سابعه
لا يرهب الخصم ابراقى وارعادى
فان أك عشت فردا بين أحزانى
فها أنا اليوم فرد بين أندادى

وهذا الشعر المحكم النسج فى سن مبكرة يحملنا على التساؤل عن سر هذه القوة العارمة التى تجلت قبل الاوان فى عصر مجدب من القرائح الفياضة التى تهدر بالشعر الجيد . أهى فى تربيته القومية أم هى فى طبعه واستعداده ؟

التكوين الادبى :

تلقى البارودى درسه فى البيت أولا والمدرسة الحربية ثانيا وهـــذا النوع من التعليم ما كان ليهيء هذه الزعامة الشعرية وقلنا فى فصله سابقة أن شعر العصر الذى ولد فيه البارودى كان فيه كثير من الاحتفال بالبديع وعجز عن التحليق فى سماء الخيال ، فلم يكن العصر مما يساعد على وجود مثل العبقرى الفذ وقد ساعد على ذلك .

أولا : الطبيعة الشعرية التى وهبها من الله سبحانه وتعالى ، فهو لم ينظم الشعر لأنه تعلم العروض ، كان لازما عليه كما كان ينظم غيره من الشعراء السابقين ، وإنما تعلق به عن هوى وسليقة « ولا بد لابن الايك أن يترنما » ، سألت أوازانه على لسانه فتهدى إلى ما عنده من ملكة شعرية ، وقدره لغوية وهو يقول : « أن خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها ولم تفارقنى إلا فى أقلها » .

ويتحدث عن هذه الخطرات أحمد أمين فيسميها أوقات التجلى .

ثانيا : الدراسة الأدبية التى أمعن فيها وتفرغ لها وعدم سلوك الطريق التى كان يسلكها غيره من الاقتصار على دراسة النحو والصرف كما حدث بذلك المرصفى فى الوسيلة الأدبيه « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ دووان الشعراء ، أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصوره فى برهـــة يسيرة هيأت القراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ثم استقل بقراءه دووان مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها » .

وقد نعد فى حديث المرصفى عن تلميذه شيئاً من المبالغة ، ولكننا لانتكر أن تلميذه عصامى ، وهبه قرأ النحو والعروض والبيان فماذا يفيده ؟ أن شعراء عصره يعرفون ذلك فماذا أفادوه ؟ ليست الشاعرية وقفاً على قواعد النحو والصرف ومعرفة العروض والقافية واصطلاحات البلاغيين وإنما هى وقف على طبع موهوب يستمد من بيئته عوامل شاعريته فإذا لم يجد فيها الغذاء الكافى تجاوزها إلى غيرها وكذلك فعل البارودى فلما لم يجد مدداً من حياته ولا مسعداً من عصره أبى طبعه الملح وقريحته إلا أن ينزع إلى حياة أخرى يتسلفها الخيال ويتقاضاها الإمداد أخيرنا بذلك المرصفى حين حدثنا عن دواوين الشعراء التى تعشقها وكلف بحفظها ثم باستشبات معانيها ونقد شريفها من سفافها .

كانت إذا قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر الجيد المنتقى هى عماد ثقافته الأدبية على أن البارودى قد أطلع على آداب أخرى غير الآداب الغربية فقد تعلم الفارسية والتركية فى أثناء توظفه بوزارة الخارجية فى الإستانة يضاف إلى هذا ماروى من أنه تعلم الإنجليزية وهو فى منفاه ، وترجم بعض آثارها ، وهذه اللغات المتعددة لها أثر ولاريب فى معانيه وأخيلته وتصويره للحوادث .

هذا وقد حفل عصر البارودى بأحداث عظام فمن نهضة شاملة وخلق لأمة متمدينة إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفى وتشريد ، وقد سافر البارودى إلى الإستانة مراراً وشهد حرب — كريت — بروسيا — ورأى عالما لم يعرفه من قبل ومناظر جديدة فتأثر بكل هذا وانفعلت نفسه له وصاحب هذه الأحداث بشاعريته فانطلق يردد خواطره وأحاسيسه فكان هذا الشعر الخالد .

أنظر فى الأدب الحديث : عمر الدسوقى — حـ ١ ص ١٥٦

ثالثاً : الوراثة الشاعرية قريبة كانت أم بعيدة وقد سجلها الشاعر فى شعره :

أنـــا فى الشـــعر عريـــق
لم أرثـــه عـــن كلالة
كان إبراهـــيم خـــالى
فيـــه مشهـــور المقـــالة
وســـما جـــدى عـــلى
يطلـــب النجـــم فنـــاله

لانظن أن خال البارودى كان شاعراً ممتازاً عن أهل عصره ، ولـكن لعل البارودى وجد فيه مشجعاً على قول الشعر كما وجد فى جده المعالى التى يفخر بها .

وقد يكون الباعث له كلمة من أســـتاذ أو قصيدة حفظها واستطاب توقيعها وأنشادها أو مناسبة سمع فيها ماأذكى طبعه .

ولـكننا على ما نجهل من حقيقة هذا الباعث تستطيع أن نعلم أن الدافع بالشعر لم يكن غريباً عن طالب المدرسة الحربية فى ذلك الزمن كما تبدو عليه الغرابة فى الأمم الأوربية إذ كانت الفروسية قرينة للشعراء فى غرف الخاصة والعامة .

وماأصدق المتنبي إذ يقول :

فإذا همـــا أجتمعا لنفس حرة
بلغت من العليـــاء كل مكان

فأراد البارودى أن يجمع بين الفضيلتين أو لبس الشعر قد خلد قبله أسم عنترة ، وأبى فراس من أشهر الأسماء بين الفرسان الشعراء .

أجل غنى البارودى بالشعر كما يغنى الطائر من غير صنعة ولا تكلف وحركت الأغراض فؤاده فى فجر حياته فأطربنا بنغماته الحلوة حتى جاء آخر العمر وقد أظلمت الدنيا فى عينيه بعد فقد الشباب وفقد الأهل والديار وضرب الأسى على جميع أوتار حياته .

شعر البارودى

أنفى حين أعرض شعر البارودى لاستبين مزاياه لا أتناوله من ناحية أغراضه من فخر ومدح ورثاء ووصف لأن تلك الدراسة لا تظهر فيها شخصية البارودى وسر نبوغه بل مظهر التفوق فى كل شاعر عظيم هو أن تستطيع التعرف عليه من خلال شعره .

وعلى هذا النحو أخذ البارودى يرسل أنغامه النارية الملتهبة يعبر بها فى صدق عن مكنونه نفسه تارة بفخر وثارة يشكو الهوى وتباريح الغرام وعينه على الطبيعة من حوله وقلبه معلق بمجالس الإنس واللهو ، وفى ثنايا ذلك ينشر من حين إلى حين بعض الحكم(١) .

وسرعان ما أخذ فى وصف الحروب ونراه يقتحم بشعره معركة أمته السياسية ، شاعراً بأمجادها التاريخية .

وكان ذلك تحولا بعيد المدى فى أشعاره إذ أخذ يبث فيها شكوى مريرة من بعض معاصريه الذين أختلط بهم ، ممن كانوا يعيشون على مداهنة الحاكم وعلى الوقيعة الخسيسة وأبت الحوادث إلا أن تزيد هذه الشكوى مرارة على مرارة ثم كانت كارثة المنفى وانتزاعه من أحضان وطنه وأحضان زوجته الشابة وبناته الصغيرات ، فأعول بالحنين الذى تتحرق به أحشاؤه .

ومن ثم وجدنا البارودى يقول :

أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به
وإن غدوت كريم العم والخال

---

(١) البارودى — رائد الشعر الحديث — د . شوقى ضيف ص ١٠٢

ولى من الشعر آيات مفصـــلة
تلوح فى وجنة الأيام كالخـــال
ينسى لهـا الفـاقد المحزون لوعته
ويهتـــدى بسـناها كل قوال
فانظر لقولى تجـد نفسى مصورة
فى صفحتيه فقولى خط تمثالى
أن ابن آدم لولا عقله شبح
مركب من عظام ذات أوصال

ولما كان شعر البارودى مرتبطاً أشد الإرتباط بحياته وأحداث عصريه ، تلك الحياة التى كانت مليئة بالأحداث الجسام فإنى أسوق الكلام عن شعره لا بحسب أغراضه بل وفق صدور ذلك الشعر عنـــه خلال حياته .

وبوسعنا أن نميز أربع فترات فى حياة البارودى .

الأولى : البارودى من مولده حتى الثورة العرابية .

الثانية : البارودى فى أثناء الثورة العرابية .

الثالثة : البارودى فى منفاه .

الرابعه : البارودى بعد عودة من المنفى .

فى الفترة الأولى يطالعنا أول نص أدبى متميز لذلك الشاعر فى فجر شبابه ذلك النص هو رثاؤه لوالده وسيق لنا حديث عنه ، وفى سنة ١٨٦٥م كانت جزيرة كريت قد شقت عصا الطاعه على الدوله العثمانية فأسهمت مصر إذ ذاك فى إخمـــاد تلك الثورة بفرقة من الجيش كان من أفرادها البارودى وهذا أول شعر له خارج مصر وقد قال فى ذلك قصيدة رائعة وصف فيها الحرب جاء فيها :

أخذ الكرى بمعاقد الإجفان
وهنا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب
فوق المتالع والربى بجران

وهنا تصادف خاصية من أبرز خصائص شعر البارودى ألا وهى التغنى بحب مصر والفخر بها فيمضى البارودى واصفاً ماتعانيه نفسه من حنين إلى مسقط رأسه فيقول :

والنفس لاهية وأن هى صادفت
خلفاً بأول صاحب ومكان

فى هذه القصيدة نجد البارودى فى وصف الحرب وحنينه إلى الوطن فأبدع فى الوصف ، وعبر فأجاد فى التعبير كأنه لم يكن ابن عصره وفى سنة ١٨٧٧ ذهب مع الجيش الذى أرسله والى مصر لمساعدة الدولة العثمانية حينما أعلنت روسيا عليها الحرب ومما قاله البارودى فى تلك الحروب :

إذا نحن سرنا صرح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

وهكذا يحلق البارودى فى سماء الوصف حتى لتحس بالمعركة الحربية الإحساس المشترك الفعلى فيها ، ولا تعجب إذا عددنا جديداً عند البارودى وأن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربى وما من شاعر إلا وله فى الوصف أبيات ولكن الجديد فى وصف البارودى أنه أفرد له قصائد بعينها ولم يأت به عرضاً فى ثنايا القصائد كان يصف لمجرد الوصف ولأن شاعريته وحواسه المرهفة وتذوقه للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر وإلى وصف مشاهداته لا كما هى فى الطبيعه ولكن يخرجها ملونه بشخصيته وشعوره وأفكاره .

وإذا أردت أن تعرف متى يحلق البارودى فى الوصف فاقرأ أوصافه فى الأشخاص إنه لا يقل عن أمهر مصور بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع أن يبرز على لوحته دخائل النفوس وأسرار القلوب والحركات والإشارات .

وفى هذه الفترة تأثر البارودى بشعر الفحول فى عصور أزدهار اللغة والأدب وعارضهم فما قصر عنهم وأثبت أنه كان رائداً لعصر أدبى جديد لقد جارى البارودى من سبقه من فحول الشعراء ، عارض النابغة الذبيانى من أصحاب المعلقات فى العصر الجاهلى فى قصيدته التى يصف فيها زوجة النعمان والتى مطلعها :

أمن آل مية رائح أو مغتد
عجلان ذا زاد وغير مزود

فأنشد البارودى على نفس الوزن والروى قصيدة سلك فيها مسالك الشعراء الجاهليين فى مباشرة الحروب وركوب الخيل وشرب الخمر ومغازلة النساء جاء فيها :

ظن الظنون فبات غير موسد
حيران يكلأ مستنير الفرقد

وجارى أبا فراس الحمدانى فى قصيدته التى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فقال البارودى فى نفس الوزن والروى :

طربت وعاودتنى المخيله والسكر
وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر

فى هذه القصيدة أفصح البارودى عن حبه المكنون وشوقه الدفين ثم كأنى به يود أن يطنب فيما يتعلق بما فعله الحب به وفيما خلفه هجر الحبيب ولكن طبعه العسكرى غلب عليه حتى لايضعف نفسه فى سبيل حبه فانتقل من الحديث عنه إلى الفخر بنفسه وقومه فقال فى نفس القصيدة :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت
لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم
لها فى حواشى كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه
تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

ومهما كان من الأمر فانى أعتقد أن البارودى كانت فى نفسه مغالبة بين عاطفتى الحب والإباء فتغلب الاباء وجمح به ولقد كان الاباء عاملا كبيرا فى حياته وفى شعره دفعه فى الحياة إلى سلوك الطريق الوعر المملوء شوكا ليقطف العز من خلاله ويبلغ به أبعد غاية ثم إلى التجلد والصبر عند الشدائد ودفعه فى شعره إلى الفخر وترك المديح لأنه رجل ذو مطامح طموح إلى العلياء وكأنما نطق الكاظمى بلسانه حين يقول :

ماسلونا آرام نجد ولكن شغلتنا العلا عن الآرام

وإذا أمعنا النظر فى مصادر هذا الإباء وجدناها ممثلة أولا فى أصل البارودى وحسبه ، ثانيا النعرة العربية التى ورثها الشاعر عن العرب الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم .

ثالثا كبرياء حامل السيف . سيما أن البارودى كان جنديا كبيرا .

ولقد جارى أيضا الشريف الرضى فى قصيدته التى مطلعها :

لغير العلا منى القـــلا والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى الحرب أرغب

فقال البارودى قصيدته التى مطلعها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويلعب

والتى جاء فيها تلك الحكمة الغالية :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذين يلقاه فيها محبب
إذ أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

ومن خير معارضاته قصيدته الطويلة بل ملحته التى سماها : (كشف الغمة فى مدح الأمة ومطلعها :

يارائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حى بذى سلم

فقد عارض بها البوصيرى فى مديح الرسول ﷺ .

هذه صورة من معارضة البارودى القدامى بيد أن المعارضة على هذا هى أعمق من البداوة أو هى محاكاة مطبوعة ليس فيها من التقليد إلا الرغبة فيه وكأنما البارودى هنا يمثل قديم لبس دور الشاعر البدوى فوفاه لغـــة وشعورا وزيا وحركة خلقه خلقا جديداً وجعل له تمثالا من نفسه وحياته وأصبح مبتكرا فى الدور الذى أخذه كما يبتكر الممثل فى انتحال أدواره وابطاله فهو فنان خالق فى أتباعه كما يكون الفنان خالقا فى ابداعه .

ترنم البارودى فى ربيع حياته بهاته المعارضه أيام أن كانت الدنيا مقبلة عليه وكان هو متمتعا برغدمن العيش ولـكن سرعان ماتتغير الأحوال ذلك لأنه فى آخر حكم اسماعيل باشا هبت على مصر بعض الأنواء ترنحت لها سفينة الحياة فيها ثم كانت عاصفة هوجاء أيام توفيق بسبب فساد الحكم

فضلت السفينة الطريق وقد أنشد البارودى قصيدة رائعة يصور فيها فساد الحكم فى عهد اسماعيل ويحرض الناس على طلب العدل جاء فيها :

قامت به من رجال السوء طائفة
أو هى على النفس من بؤس على شكل

وتعد هذه أول قصيدة قيلت فى السياسة فى العصر الحديث وعلى منوالها نسج من جاء بعد البارودى وهى صرخة عاتيه فى وجه الظلم وحث على العمل من أجل انقاذ الوطن .

وإيذان بترك صفاء العيش والاقبال على حياة قلق ونضال وبذلك تبدأ الفترة الثانية من حياة البارودى .

ثانياً : البارودى فى الثورة العرابية :

وقف البارودى على أطلال الشباب يودع الطور الأول من حياته ليبدأ عصراً فى الأفكار والقصيد . سنجد حديث السياسة فى غير خدع ولا مواربة بل سنجد روحا شفافة مليئة بالحزم واسمعه يهنىء الخديوى توفيق :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو بمرصد

وقد جمع البارودى فى بيته الثائر روح الثورة العرابية والكر هل كان البارودى فى بيته ثائراً بالمعنى الذى يفهمه الناس للعصيان والتمرد ؟ وهل ساهم البارودى فى ثورة العرابيين رغبة منه فى أعمال العنف ؟

لا بل كان البارودى زعيم المعتدلين يعمل فى جو هادىء فلما حدثت

الثورة ذهب الى مزارعه يملأ قلبه الأسى كان يريد انقلابا يستريح به لا ثورة تضطرب لها البلاد من أقصاها إلى أدناها وفى هذا يقول :

كنا نود انقلابا نستريح له حتى إذا تم سادتنا مصائره

هذه القصيدة تصور لنا حالة مصر فى تلك الفترة أتم تصوير وفيها ينصح البارودى بتجنب ويلات الحرب وإن كان يعلم أنه لا أمل فى ذلك لأن انجلترا وفرنسا عدونا الإنسانية تريدان ذلك وهما اللتان دفعتا مصر دفعا إلى تلك الحرب دفاعا عن النفس .صدقت نبوءة البارودى ووصل أسطول البغى إلى شواطىء الاسكندرية ولما جد الجد انسحبت فرنسا وانفردت انجلترا فى عدوانها على مصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتهى ذلك العدوان باحتلال مصر بعد أن دافع عنها أبناؤها دفاع الأبطال .

كان الشعر السياسى من الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة وظهرت فيها شخصيته واضحة تفصح عن النفس الأبية المتمردة على الظلم والطغيان المحبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس .

ذلك الشعر الذى دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه وجعل منه زعيما محبوبا الذى ألقى به فى غياهب السجن ورمى به بعيدا عن وطنه وياليته كف عن مثل هـــذا الشعر وهو يتجرع غصص النفى والتشريد والمرض بل زفر زفرات حارة كادت تحرق المعتدين بشواظها الملتهبة ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أول الأمر من عودته حتى لا يعيدها مشبوبة الضرام .

ثالثا : البارودى فى المنفى :

فى الثامن والعشرين من ديسمبر أقلعت سفن المحتلين من شواطىء مصر تحمل البارودى وزملاءه إلى منفاهم فى سيلان فوصلت ميناءها كولومبو فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ وقد وصف البارودى رحيله عن وطنه بقصيدة تفيض لوعة وأسى جاء منها :

محا البين ما أبقت عيون المها منى
فشبت ولم أقض اللبانه من سنى

عناء وبأس واشتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن

فإن آك فارقت الديار فلى بها
فؤاد أضلته عيون المها منى

وفى المنفى أخذ شاعرنا يرسل القصائد الحسان التى أحيت عصور الأدب المشرقة ومما قاله فى منفاه عندما بلغه نبأ موت زوجته سنة ١٨٨٥م :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى تقوى على رد الحبيب الغادى
يا دهر فيم فجعتنى بخليلة كانت خلاصة عدتى وعتادى

ولما بلغه أن بعض ذوى المطامع الدنيئة يتعاونون مع الغاصب ندد بهم فى قصيده جاء فيها :

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ولكنه قد يخذل المرء جهده
أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه
ويملك أعناق المطالب وغده

وفى عام ١٨٩٠ غادر زملاءه ورحل إلى مدينة كندى بنفس الجزيرة

سيلان : وكانت المدينة على جانب كبير من الجمال الطبيعى فأثر جمالها فى نفس البارودى وهيج فى قلبه حنينه إلى أحبابه من أبناء وطنه فأنشد قصائده الخالدة منها :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى
وهل يعود سواد اللمة البـــالى

لم يدر من بات مسرورا بلذته ... أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل إلى عدة ... بالوصل يوما أناغى فيه اقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم ... وساء صنيع الليالى بعد إجمالى

الواقع أنه برغم ما سقت لك من نماذج سمابها صاحبنا إلى ذروة المجيدين من الشعراء المتقدمين فإن شعر الشكوى والحزن هو أقرب قصيد شاعرنا إلى القلب وأحبه إلى النفس وقد نظمه البارودى كله وهو بعيد عن مصر وأكثر فيه من ذكرها والحنين إليها والاشادة بذكرها وأى ألم أشد من ألم صاحبنا فى بيت نأخذه من القصيدة التى ودع بها مصر :

أهبت بصبرى أن يعود فعزنى
وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

والواقع أن التبرم والتوجع هو الشعور الذى كان يسود روح صاحبنا فى منفاه وفى هذه الفترة أكثر الشاعر من ذكر أيام الشباب وأيام النضرة وتحدث عن ذكريات هامة وكانت هذه الذكريات تملأ عضل الرجل وقلبه حتى أنه كان يصيح :

أعـد يا دهر أيام الشباب ... وأين من الصبى درك الطلاب

على أن صاحبنا لم يتبرم بالحياة ، ولم ينقم على الاحياء وتبرمه شىء آخر غير تبرم شاعر كأبى العلاء . وإن كان البارودى أيضا قد عاش أياما

طويلة رهن المحبسين محبس المنفى ومحبس العمى بعد أن كف بصره إلا أنه كان مؤمنا فيعود به إيمانه إلى الصبر وتقبل الواقع وحكمه والأمل يملأ قلبه فى تبدل الأحوال .

ولن نجد فى حزن البارودى عنفا فقد يتحدث عن الدمع الذى سيلازمه بينما سواه يدك الجبال ويكشف ويخسف القمر وكأنها قد شاركته حزنه . وأغلب شعر المنفى فى الشكوى والحنين إلى الوطن .

البارودى بعد المنفى :

قضى البارودى فى منفاه سبعة عشر عاما ساءت فيها صحته ووهنت قواه ثم سمح له بالعودة إلى وطنه سنة ١٩٠٠ فلما أطل عليه بعد الغياب الطويل قال :

أبا بل رأى العين أم هذه مصر
فإنى أرى فيها عيونا هى السحر

نواعس أيقظن الهوى بلواحظ
تدين لها بالفتكة البيض والسمر

وعندما مر بقصر الجزيرة تذكر أيام إسماعيل فأنشد :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزغ
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

وبعد فقد أذنت شمس حياة الشاعر بالمغيب ، فانتقل إلى جوار ربه فى ديسمبر سنة ١٩٠١ فبكته مصر عن بكرة أبيها ولئن كان البارودى

قد مات فإن ذكراه ستظل حية عطرة على مدى الأيام وبذلك ختمت صحيفة زعيم النهضة الشعرية فى العصر الحديث وهو الذى أنار الطريق لمن أتى بعده من الشعراء كأحمد شوقى وحافظ ومطران وغيرهم يشعر :

رقيق كما غنت حمامة أيكة وجزل كما شق الهواء عقاب

د / عبد المنعم محمد يوسف

* * *